مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العدد الخامس ربيع الثاني – جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ يونيو – أغسطس ٢٠٠٣ م

- البناء والكراء في سوق المناخة بين المنع والإباحة
- أمراء المدينة المنورة في النصف الأول من العهد العثماني
- الحياة الثقافية في المدينة المنورة في العهد المملوكي
- جماليات المكان ـ العقيق نموذجاً ـ قراءة في شعر شعراء المدينة المعاصرين
- رحلة ابن بطوطة إلى المدينة المنورة

الحياة الثقافية في المدينة المنورة
في العصر المملوكي

د. عبد الباسط عبد الرزاق بدر
مدير عام مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مدخل

يطلق المؤرخون مصطلح « **العصر المملوكي** » على الفترة الممتدة من نهاية حكم الأسرة الأيوبية في مصر عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إلى استيلاء السلطان سليم الأول العثماني عليها عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وضمها - والإمارات التي تتبعها - إلى الدولة العثمانية ، ويشمل تاريخ هذا العصر مصر والشام والحجاز .

وقد شهد هذا العصر أحداثًا مهمة ، في مقدمتها وقف الزحف المغولي الذي أسقط الخلافة العباسية في بغداد ، واجتاح حلب ودمشق ، واتجه إلى مصر ، فتصدى له المماليك ، وانتصروا على المغول في معركة عين جالوت ، كما شهد إخراج الصليبيين من الساحل الشامي ، ومنعهم من العودة إلى المنطقة ثانية ، وتجهيز الجيوش القوية ، والأساطيل البحرية التي حفظت هيبة الدولة ، وحالت دون أطماع الآخرين فيها ، فقد كان معظم سلاطين المماليك فرسانًا أقوياء ، وكانوا - رغم عجمتهم وأصولهم غير العربية - محبين للعلم والعلماء ؛ ينفقون الأموال الطائلة عليهم وعلى إنشاء المدارس والأربطة والزوايا ، والمساجد والمستشفيات على نحو ما فعله السلطان قلاوون ، والسلطان الأشرف قايتباي .

غير أن بعضهم أسرف في فرض الضرائب وجمع الأموال ، والإنفاق على القصور والملذات ، وخاصة في آخر فترة حكمهم ، فضعفت قوتهم ، ولم يصمدوا أمام زحف العثمانيين .

وعندما بدأ حكم المماليك ، كانت المدينة إمارة مستقلة عن مكة ، يحكمها أمراء آل مهنا الحسينيين ، وكانت سلطة المماليك عليها لا تتعدى الخطبة لهم على المنابر ، غير أنه في عام ٦٦٥هـ أكد السلطان بيبرس سلطته

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عليها ، فبعث إليها الجباة ؛ ليسهم أهلها في الإنفاق على محاربة الصليبيين[١] ، وبعد وفاته صار تعيين أمير المدينة وعزله بيد السلطان المملوكي ، وبموافقة الأسرة الحسينية ، التي كانت متماسكة ، وما لبث أن دب الخلاف بينها ، وتحول إلى صراع على السلطة ، فصارت مراسيم التعيين تصدر دون مشورتهم غالبًا .

العلاقة بين سلاطين المماليك وأمراء المدينة

وكان السلاطين يراقبون أعمال الأمراء مراقبة عامة ، ويستمعون للشكاوى المرفوعة ضدهم ، ويستجيبون لها غالبًا ، فيعزلون الأمير إذا كثر التظلم منه ، وقد أسهم هذا الحزم في إنهاء عدة حالات من الاضطرابات والظلم ، وفي بعض الحالات أرسل السلطان قوة مسلحة إلى المدينة لتعزيز سلطة أميرها[٢] ، وكان السلاطين يظهرون التقدير والاحترام الكبيرين لأمراء المدينة ووجوه أهلها ؛ لمكانة المدينة في نفوسهم ، وللنسب الكريم الذي يحمله أحفاد آل البيت ، ولكن عندما كانوا يسيئون التصرف كانوا لا يترددون في القبض عليهم وسجنهم ، وتعيين أفراد آخرين من الأسرة نفسها[٣] .

حالات شاذة من الإمارة سببها ضعف السلطان المملوكي

وقد تخللت فترة حكمهم الطويلة حالات أساءت إلى المدينة وأهلها ؛ حيث كان بعض السلاطين يتعجل في إصدار مراسيم التعيين بمشورة بعض مستشاريه دون معرفة بالصراعات الدائرة في المدينة ، أو بين أميرين في وقت واحد[٤] ، وكانت مراسيمهم هذه تسهم في تأجيج الصراع ، وثمة حالة منفردة تعد من أسوأ الحالات ، وقعت سنة ٧٢٩هـ عندما عين السلطان المملوكي خشرم بن دوغان أميرًا للمدينة مقابل التزامه بدفع مبلغ كبير للسلطان[٥] ، فقد أرهق هذا الالتزام المدينة ؛ لأن خشرم سعى لجبايته من أهل المدينة ، غير أن هذه الحالات كانت معدودة ، تحدث في فترة ضعف السلطان المملوكي وفساده .

(١) انظر عقود الجمان ٤٢٨/١ .
(٢) انظر : العقد الثمين ٤٣٧/٣ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ٢٥٠/١٢ ، والتحفة اللطيفة ٧٥/١ و ٢٥٩/٢ .
(٤) انظر : تاريخ ابن خلدون ١٤١/٤ .
(٥) انظر : النجوم الزاهرة ١٢٢/٣ ، والتحفة اللطيفة ١٨/٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إنشاء الأربطة والمدارس في المدينة

وقد شهدت المدينة المنورة خلال العهد المملوكي إنشاء عدد من الأربطة والمدارس والزوايا والمستشفيات[١]، ورمم المسجد النبوي عدة مرات، وبنيت فيه لأول مرة القباب، وجدد بالكلية في عهد السلطان الأشرف قايتباي إثر حريق ضخم شب فيه سنة ٨٨٦هـ[٢]، وكانت بعثات الحج تحمل إلى أهل المدينة الأموال والأرزاق.

لذلك تفاوتت الأحوال السياسية في إمارة المدينة المنورة خلال العصر المملوكي، فكانت تستعر بالصراعات على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها، وتبلغ درجة الحروب والمعارك والغارة على المدينة وترويع أهلها، وقتل الأمير أو طرده[٣]، والهجومات المضادة والانتقام.

كما حدثت حالات من الصراع مع أمراء مكة الحسنيين عندما تدخل أمير المدينة جماز بن شيحة في الصراع القائم بين أفراد الأسرة الحسنية على إمارة مكة، وانحاز إلى أحد الأطراف، وقاد حملة عليها عام ٦٧٠، ثم ٦٧١ و ٦٧٥هـ لتولية أمير وعزل أمير[٤].

المدينة تصبح تابعة لمكة سياسيًا وإداريًا

وعندما كثرت الاضطرابات في إمارة المدينة سنة ٨٨٣هـ فوض السلطان المملوكي أمير مكة الشريف محمد بن بركات التدخل فيها، فقاد حملة إليها، وعزل أمير المدينة، وعين أميرًا آخر، وأقر السلطان صنيعه[٥]، ومن وقتها صارت المدينة تابعة لأمير مكة، وصار اسمه يذكر في الخطبة والدعاء بعد السلطان وقبل أمير المدينة، وتعززت هذه التبعية بالتدخل في الشؤون المالية واقتطاع نسبة من واردات إمارة المدينة

---

(١) انظر: وفاء الوفاء ٦٣٣/٢.

(٢) انظر: بدائع الزهور ١٨٨/٣.

(٣) تعد المدة الزمنية للإمارة مؤشرًا على طبيعة الأحوال السياسية في المدينة، توالى على إمارة المدينة منذ مطلع العهد المملوكي إلى ٧٢٥هـ خمس أمراء، بينما توالى عليها من ٧٢٥ -٨٢١ أربعة وعشرون أميرًا، ومن ٨٢١ -٩٢٣هـ ثلاثة وعشرون أميرًا، وقد يتكرر تعيين الأمير وعزله مرتين أو ثلاثة.

(٤) انظر: العقد الثمين ٤٦٠/١ -٤٦٦.

(٥) انظر: التحفة اللطيفة ٢٥٣/٢، وإتحاف الورى ٦٣٥/٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لإمارة مكة ، ومحاسبة مسؤولها المالي ، فهبط دخل أمير المدينة ، وكان هذا أحد المسوغات التي علل بها حسن بن زبيري - أمير المدينة عام ٩٠١هـ - إقدامه على نهب حاصل المسجد النبوي ، وتركه الإمارة ، وخروجه من المدينة ، حيث سارع أمير مكة فعين صهره أميرًا عليها[١] ، وظلت تبعية المدينة لمكة حتى نهاية العصر المملوكي ، حتى إن الشريف محمد بن بركات أمير مكة أرسل عام ٩٢٣هـ إلى السلطان العثماني سليم الأول مفاتيح الحرمين رمزًا لولاء المدينتين المقدستين للعثمانيين[٢] .

التاريخ السياسي للمدينة يثير مشاعر سلبية في القارئ

ولا شك أن الحياة السياسية تثير مشاعر متباينة في نفس من يتتبعها ، فالنسبة الكبيرة منها تحمل صراعات على السلطة ، تستعر فيها الرغبات الشخصية والأهواء ، وتتجاوز أحيانًا ضوابط الشرع والأخلاق ، وتفسد العلاقة بين الأهل والأقارب ، بل وفي الأسرة الواحدة أحيانًا ؛ فيحارب الرجل قريبه ، وقد تسفك دماء بريئة أصابتها شظايا الصراع من هنا أو هناك ، ويدهش المرء لذلك كله ، وتسوء نظرته لأولئك الأقوام وذلك التاريخ .

حقيقة الواقع السياسي في المدينة

غير أن هذه الصورة - على واقعيتها - لا تمثل الحقيقة الشاملة ؛ فالصراع على الإمارة كان محصورًا - في الغالب - ضمن عدد محدود من الأفراد داخل الأسرة الحسينية ، يدور بين إخوة أو أبناء عم ، ويشارك فيه رجالهم ليس غير ، أما بقية الأسرة الحسينية فكانت تعيش حياتها العادية بهدوء واستقرار ، وكان عدد كبير منهم يهتم بالعلم ، ويشارك في حلقات التدريس ، وكذلك بقية أهل المدينة والمجاورون فيها ؛ كانوا بعيدين كل البعد عن هذه الصراعات ، يعيشون حياتهم اليومية في متاجرهم ومزارعهم وحلقات العلم في المسجد النبوي ، والمدارس ، والأربطة ، والزوايا المنتشرة حوله ، وما لم تحدث

---

(١) انظر : التحفة اللطيفة ٣٩٢/٣ ، وسمط النجوم ٢٨٢/٤ .

(٢) انظر : بدائع الزهور ١٩٠/٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

غارة على المدينة ؛ لم يكونوا يشعرون بهذا الصراع أو يتأثرون به ، وعندما تحدث غارة من أحد المتنافسين على السلطة كانت الأحوال تضطرب لفترة قد لا تطول أكثر من ساعات ، يتمكن فيها المغيرون من الاستيلاء على الإمارة ، أو يتمكن رجال الإمارة من طردهم ، ثم ينتهي الأمر ، وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعي .

والأحداث التي يستهولها المرء وهو يقرؤها في كتب التاريخ لو جئنا نعدها لوجدناها معدودة ، فإذا وضعناها في إطارها الزمني ظهرت على شكل نتوءات قليل في سهل واسع ممتد ، ووجود هذا القدر المحدود من السلبيات لا يجوز أن ينسينا بقية الزمن الطويل الذي خلا منها ، وكانت الحياة عادية ؛ إن لم نقل إنها سلسة رخية .

المؤرخون ركزوا على الفتن والاضطرابات

ومن المسلَّم به أن المؤرخين صرفوا همهم الأكبر إلى الأحداث السياسية ، وكتبوا عن الفتن والثورات وقضايا الحكم والحروب ، وقلما اهتموا بالحديث عن المجتمعات في حالاتها الساكنة ، لذلك فإن الحياة الاجتماعية والثقافية والجوانب الحضارية الأخرى ليس لها عنوان في أي من كتب التاريخ التراثية ، لكنها موجودة على شكل إشارات عابرة ، وشذرات متفرقة بين الأحداث ، وينفرد ابن كثير في كتابه البداية والنهاية عن بقية المؤرخين في ترجماته الواسعة لأعلام كل عصر ، وحديثه عن بعض الظواهر اللافتة للنظر ، والتي لا علاقة لها بالجانب السياسي ، لذلك علينا أن ننعم النظر في العبارات القليلة التي ترد في كتابات المؤرخين بعامة ، وفي كتب التراجم والسير والشيوخ ، وتتبع المؤلفات العلمية ، ودواوين الشعر ، لنستنتج منها ملامح الحياة الثقافية في المدينة المنورة ، وعطاءاتها الحضارية .

الحياة الثقافية من أبرز وجوه الحضارة في المجتمع

ولاشك أن الحياة الثقافية من أبرز وجوه الحضارة في المجتمعات القديمة والحديثة ، يُظْهِر المستوى الفكري الذي وصلت إليه ، والإبداع الذي أضافته ، والأعلام الذين قدموا عطاءات متميزة لذلك فإن استقراء هذه الحياة هو جزء مكمل

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

– وأساسي – لتاريخ المجتمع في أي عصر ندرسه ، وإغفاله نقص يحول دون الرؤية الكاملة والتقويم الصحيح .

فكيف كانت الحياة الثقافية في المدينة المنورة في القرون الأربعة التي ندرسها ؟ وما العطاءات التي تميزت بها ؟ .

تتمثل الحياة الثقافية في مظاهر كثيرة ، غير أننا سنقتصر في بحثنا هذا على المحاور التالية : التعليم ، العلماء ومؤلفاتهم ، الأدب وأعلامه .

أولاً : التعليم

يعد التعليم في المدينة المنورة من أبرز مظاهر الحركة الثقافية في القرون التي يدرسها البحث ، وتتسع دلالة هذا المصطلح آنئذ لتصور معظم جوانب الحركة العلمية ، فتشمل حلقات العلم المتنوعة في المسجد النبوي ، والدروس الراتبة في المدارس ، ومجالس المذاكرة في الأربطة والبيوت ، ونقطة البداية في : الكتاتيب .

حلقات المسجد النبوي أول وأهم مركز تعليمي في المدينة

أما حلقات المسجد فهي المركز التعليمي الأول في حضارتنا الإسلامية كافة ، بدأها رسول الله ﷺ عندما كان يتحلق حوله الصحابة الكرام فيحدثهم ، ويعلمهم ، ويعظهم ، وفي عهده ﷺ جلس الصحابة يعلم بعضهم بعضاً القرآن الكريم ، وينقل صحابي لآخر ، أو للآخرين ما شهده أو سمعه من رسول الله ﷺ في موقف لم يشهدوه ... واستمر الأمر على هذا المنوال في عهد الخلفاء الراشدين ثم التابعين وتابعي التابعين ، وصارت سواري المسجد النبوي والروضة المطهرة مواقع للقراء والمحدثين والفقهاء وغيرهم من العلماء يتحلق حول كل منهم مجموعة من الشغوفين بالعلم يسمعون ، ويكتبون ويسألون ويجابون ... يقصدها العلماء والمتعلمون من المدينة أولاً ، ومن كل قطر إسلامي من بعد ، فقلما تقرأ سيرة عالم نابه ولا تجد فيها أنه شد الرحال إلى المدينة ، وجلس في مسجدها ، وسمع من فلان وفلان ... أو حدث وأخذ عنه فلان وفلان أو ناظر ، أو أجاز أو استجاز ...

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وفي القرون التي ندرسها لم يختلف الأمر عما كان عليه من قبل ... سوى أنه كان يتأثر ببعض العوامل الداخلية والخارجية ، كالحالة الاقتصادية ، والاستقرار وأمن المدينة ، وكذا أمن الطريق والقوافل القادمة ، والظروف التي تيسر للعلماء وطلاب العلم أن يضربوا في الأرض ، ومواسم الحج والزيارة ... فهذه كلها عوامل تزيد أو تنقص من حلقات العلم في المسجد النبوي ، وتسرّع الحركة العلمية أو تجعلها تبطئ بنسب متفاوتة .

وتتوزع أخبار هذه الحلقات في عبارات متناثرة في ثنايا بعض الأحداث التاريخية ، وفي ترجمة بعض العلماء ، الذين تصدروا حلقة أو تتلمذوا على شيخها . ومن النادر أن نجد حديثاً مستقلاً عنها .

استمرت حلقات العلم في المسجد النبوي في العصر المملوكي وازدهرت

ونفهم من تلك العبارات أن حلقات العلم في المسجد النبوي استمرت على امتداد القرون الأربعة التي ندرسها ، وكانت أشبه بجامعة حرة مفتوحة فيها شيوخ مقيمون ، يديرون حلقاتهم لسنوات طويلة ، ويتخرج منها العشرات من طلاب العلم ، يتحول معظمهم إلى شيوخ في المدينة ، أو في المدن التي جاوروا فيها ، أو التي يرحلون إليها من بعد . وفيها شيوخ زائرون قدموا للمدينة في زيارة قصيرة أو جوار محدود ، وكانت لهم شهرة سبقتهم إلى المدينة ، فأقبل عليهم الطلاب والعلماء ، وسألوهم أن يحدثوهم أو يقرأوا عليهم شيئاً من مؤلفاتهم ، أو من التراث ، فتصدروا لذلك مدة من الوقت ثم عادوا من حيث أتوا ...

القراءات القرآنية أول العلوم المزدهرة

ومثلما تتعدد شخصيات شيوخ الحلقات ، وبلادهم تتعدد الموضوعات التي يدرسونها والعلوم التي يفيضون بها على مستمعيهم ، ويجيزون لمن يبرع في استيعابها أن يروي عنهم ما وعاه.. وأول هذه العلوم وأقدمها صلة بالمسجد النبوي القراءات القرآنية ، فمعلمها الأول هو رسول الله ﷺ ، كان يقرأ للصحابة ما ينزل عليه من الوحي ، فيأخذونه منه ، وكان الصحابة يعلم بعضهم بعضاً في المسجد ، وينقل من حضر وسمع

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إلى من لم يحضر ولم يسمع ، وحديث القراءة التي أنكرها عمر بن الخطاب ﷺ على الصحابي(١) مشهور له دلالات كثيرة ، منها تواتر الصحابة رضوان الله عليهم على السماع من رسول الله ﷺ والأخذ منه .

وقد استمرت حلقات القرآن الكريم على مدى الأجيال التالية وإلى عصرنا هذا . وفي القرون التي يدرسها البحث تحدثنا تراجم القراء المشهورين في المدينة وفي أصقاع إسلامية كثيرة أن عدداً منهم تخرج ـ أو أمضى بعض الوقت على أقل تقدير ـ في المسجد النبوي ، يقرأ على بعض الشيوخ الذين أخذوا القراءة مسندة من شيخ إلى شيخ إلى من تنزلت عليه من السماء ﷺ ، جاء في ترجمة **محمد بن محمد بن أحمد بن عثمان الششتري** (ت ٨٨٥ هـ) أنه أخذ القراءة بالمدينة عن **محمد الكيلاني** وعن غيره ، وتصدى للإقراء ، وانتفع به أهل المدينة طبقة بعد طبقة ، وكان ممن أخذ عنه **السيد المحيوي قاضي الحنابلة** بالمدينة(٢) .

وإذا كان محمد بن محمد هذا لم يخرج من المدينة فإن شيخه **محمد بن أبي يزيد بن محمد الكيلاني أخذ القراءات عن ابن الجزري** بدمشق وأقرأ في المدينة ومكة مدة طويلة(٣) وكان **للزين بن عياش** حلقة يقرئ فيها بقراءة عاصم(٤) ونجد في ترجمات معظم أعلام المدينة وعلمائها أنهم أخذوا القرآن الكريم قراءة وتجويداً على شيوخ في المسجد النبوي وفي بعض المدارس .

العلوم الشرعية الأخرى في حلقات المسجد النبوي

وعلى هذا النحو تجد حلقات أخرى في التفسير والحديث والفقه ، ويُعَدُّ عصر الدراسة هذه عصر انتشار المذهبية ، وكان المذهب الشافعي هو السائد في المدينة ، ولكن نظام التدريس المفتوح الذي كان قائماً في المسجد النبوي كان يتيح لعلماء من المذاهب الثلاثة الأخرى عقد حلقات في مذاهبهم ، وعندما وفد **ابن فرحون** إلى المدينة في النصف الثاني من القرن السابع لم يكن فيها من يدرس الفقه وفق المذهب المالكي ،

---

(١) انظر جامع الأصول ٢/٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

(٢) انظر الضوء اللامع ٩/١٩٥

(٣) السابق ٥/٤٧٥

(٤) السابق ٩/٤٤

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فتجرد لذلك[1] وجاء الشيخ **شمس الدين ابن العجم** فوجد الفقه الحنفي غائباً عن حلقات المسجد آنئذ وغير منتشر في أهل المدينة فوجه مجموعة من طلابه إلى الاشتغال به ففعلوا[2] وهذا **يؤكد أن المذهبية لم تكن عصبية متناحرة ، بل كانت . خاصة عند العلماء . اجتهادات تتسع لها الصدور السمحة .**

إضافة إلى العلوم الدينية التي تشتغل بها حلقات العلم في المسجد النبوي .. كانت العلوم الأخرى تحظى باهتمام علماء تخصصوا فيها ، أو كانوا علماء موسوعيين جمعوا أقداراً كبيرة من علوم شتى ، وأخذوا يدرسونها لمن يقبل عليهم من طلبة العلم .. في مقدمة تلك العلوم علوم العربية . اللغة والنحو والصرف والأدب ، وكانت هذه علوماً أساسية لابد لكل طالب علم منها ، ولكن يختلفون في مقدار تحصيلهم ومواصلتهم فيها ، ونجد في ترجمات بعض الأعلام من المدنيين والمجاورين أنهم كانوا يتقنون علوماً أخرى تعد من العلوم التخصصية التي تلي علوم الدين والعربية ، ففي ترجمة **الشهاب الأبشيطي** أنه كان يدرس الجبر والمقابلة ، فضلاً عن النحو والصرف . وكذلك **التقي الحصني** كان يدرس المنطق وعلم المعاني إضافة إلى علم الأصول والعربية . وكان يحضر دروسه كثيرون ويقرأ عليه بعضهم[3] ونذكر هنا أن صفة (الموسوعية) في بعض علماء تلك الفترة تجعلهم يتصدرون لتدريس أكثر من علم ، فتكون لهم حلقة في التفسير في وقت معين وحلقة في الفقه في وقت آخر ، وثالثة في المنطق .. وهكذا .. حتى الذين كانت لهم وظائف رسمية تشغل قسماً مهماً من أوقاتهم كانوا يحرصون على التدريس في المسجد النبوي في وقت من أوقات فراغهم وخاصة القضاة الذين كانوا ينتقون من العلماء ، وكان بعضهم يعمل في التدريس قبل توليه منصب القضاء مثل قاضي المدينة **علي بن سعيد بن عبد الوهاب** (٨٤٠ - ٩١٠ هـ) الذي كان يعقد حلقات في الفقه والحديث في

---

(١) انظر : نصيحة المشاور ٨٨ .

(٢) انظر : نصيحة المشاور ٨٢ .

(٣) انظر الضوء اللامع ٤٨/٩

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المسجد النبوي[١] ومثل **علي بن محمد بن علي بن يوسف** الذي ولي قضاء المدينة عام ٨١٧هـ . وكانت له ثقافة واسعة في العلوم اللغوية فكان يقرأ دروساً في النحو في المسجد النبوي ، وقد لازم **أبو الفرج المراغي** دروسه وأخذ عنه أشياء في إعراب القرآن وقطعة من ألفية ابن مالك وقسماً من كتاب الجمل للزجاجي (وأخذ عنه **الشمس محمد بن عبد العزيز الكازاروني** النحو والصرف وإعراب القرآن وأخذ عنه أيضاً **أبو الفتح بن صالح وأيوب بن سليمان** ... وآخرون)[٢] وكانت معظم حلقات العلم في المسجد النبوي تطوعية لا يتقاضى الشيخ عليها شيئاً ، وكان العلماء الزائرون يجدون في التدريس في المسجد النبوي فرصة ذهبية يحملون ذكرياتها بقية عمرهم ، وكان بعضهم يرسل شيئاً من مؤلفاته لتقرأ في المسجد النبوي تقرباً إلى الله وطلباً للبركة .

مخصصات مالية لتدريس مختلف العلوم

وثمة عبارات في بعض المصادر تبين أن بعض أصحاب المناصب خصصوا مبالغ معينة لتدريس علم من العلوم وأنشأوا لهذه المهمة وقفاً ثابتاً يدفع ريعه لمن يقوم بالتدريس وفق الشروط المحددة في صك الوقف . مثال ذلك الدروس التي رتبها **الأمير سلار بمسعى من القاضي فخر الدين السخاوي** (ت ٧٣٩ هـ) فقد أوقف عقارات يدفع ريعها لعالم يعطي دروساً راتبة في الفقه المالكي ، ولآخر يعطي دروساً في الفقه الشافعي وثالث في الفقه الحنفي[٣] ويذكر ابن فرحون دروساً أخرى كان يمولها **القاضي فخر الدين ناظر الجيش** ودروساً يمولها رجل اسمه **شعيب بن أبي مدين**[٤] ولا شك أن هذه الدروس التي توقف لها الأوقاف ستصبح نشاطاً علمياً مستمراً ما استمر الوقف وريعه .

---

(١) انظر التحفة اللطيفة ٣/٢٢٢

(٢) السابق ٣/٢٥٠

(٣) انظر نصيحة المشاور ١٤٩ ـ ١٥٠

(٤) السابق ٦٢

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدارس :

تأسيسها وانتشارها في المدينة عبر العصور

هي المركز الثاني للتعليم في المدينة المنورة بعد المسجد النبوي ، تختلف عن المسجد بأنها منشأة لغرض التعليم وحسب ، ولها أساتذة يتقاضون رواتب على عملهم وطلاب محدودون يقيمون فيها وتجري عليهم الأرزاق .

وينسب بعض المؤرخين[1] إلى صلاح الدين الأيوبي إنشاء المدارس في المدينة ومكة ، غير أن المصادر التي بين أيدينا لا تذكر اسم المدرسة التي أنشأها ولا تنسب إليه أياً من المدارس التي عرفت في فترة دراستنا ، وربما تكون إحدى المدارس التي حملت أسماء المشرفين عليها مباشرة ، أو تكون قد عطلت بعد حين .

وتتميز مدارس ذلك العصر بأنها مستقلة في بنائها ، فيها قسم لإقامة الطلاب ، حيث تخصص غرفة لكل طالب أو اثنين ، لذا يكون عدد طلابها محدوداً لا يتجاوز الأربعين .. وفيها مطبخ يعد الطعام للطلاب والشيوخ المقيمين فيها ، وفيها قاعة أو أكثر للتدريس . وقد بنيت المدارس التي وصلتنا أخبارها حول المسجد النبوي وكان معظمها دوراً أو أربطة اشتراها المؤسسون ثم أعادوا بناءها أو عدلوها لتناسب الغرض الجديد .

ولكل مدرسة شيخ يكون بمثابة المدير المسؤول عنها ويكون من العلماء المعروفين في عصره ، ويدرس هذا الشيخ العلم الذي اشتهر به ، ويشاركه في التدريس شيوخ آخرون ينتقيهم من بين المقيمين في المدينة أو الوافدين إليها . ولكل مدرسة أوقاف مخصصة لها ، تكون عقاراً قابلاً للاستثمار - كالدور والدكاكين والمزارع - يؤجر لمن يستثمره ، ويصرف ريعه في رواتب الشيوخ والطلاب وإعاشتهم وفي صيانة المبنى وتأمين حاجاته . وعندما يقل الريع يقل عدد الطلاب وقد تغلق المدرسة نهائياً ؛ خاصة عندما يموت الواقف ويهمل الناظر أو يتسلط عليها أحد .

وتشير المصادر التي رجعت إليها إلى وجود عدد من المدارس في فترة دراستنا هي:

---

(١) انظر : الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ١/٤٣١ و ٥٢٦ والتعليم في المدينة المنورة لناجي محمد الأنصاري ٢٨٦

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

١ . المدرسة الشيرازية :

يبدو من اسمها أن الذي أسسها رجل ـ أو جماعة ـ من شيراز ، وهي أقدم ما وجدته من المدارس في ذلك العهد ويذكر من شيوخها **الشيخ إبراهيم العريان الرومي** (ت ٧٣٠ هـ) الذي (أقام بالمدينة فوق خمسين سنة على طريقة حسنة مستقراً في المدرسة المذكورة .. وله في المدينة آثار حسنة أكثرها في المدرسة ، لولاه لسقطت طبقاتها أقام فيها تلك الأساطين حتى حملت السقف والرواشين ، وكانت المدرسة مختومة في أيامه لا يدخلها إلا الأخيار من الناس ، اشترى نخلاً وأوقفه ، واجتهد في عمارته[(١)] (ثم خلف **الشيخ إبراهيم في المدرسة الشيخ سليمان الونشريسي** .. وله شيء من التصنيف ..)[(٢)]

٢ . المدرسة الشهابية :

يتردد ذكر هذه المدرسة في ترجمة عدد من الشيوخ الذين درّسوا فيها أو سكنوها ، وسميت بهذا الاسم نسبة **للملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل الأيوبي** (ت ٦٤٥ هـ)[(٣)]

ويذكر السمهودي أن الملك غازي اشترى دار أبي أيوب الأنصاري التي نزل فيها رسول الله ﷺ أول هجرته وبنى في موقعها المدرسة[(٤)] .والراجح أنه فعل ذلك عندما حج وزار المدينة سنة (٦٢٤ هـ)[(٥)] **وتتميز المدرسة بأن منهجها يدرس – حسب شرط مؤسسها – المذاهب الأربعة** ، لذلك كان مبناها واسعاً فيه قاعتان كبرى وصغرى ولها مكتبة قيمة[(٦)] ويذكر ابن فرحون – الذي تولى التدريس فيها مدة من الزمن – أنه حصل على وظيفة التدريس فيها بمساعي

---

(١) نصيحة المشاور ١٠٦ وانظر التحفة اللطيفة ١٥٤/١

(٢) السابق نفسه . وقد ذكر الأستاذ ناجي محمد الأنصاري في كتابه (التعليم في المدينة المنورة) أن الشيخ إبراهيم هو الذي أسس المدرسة . ولم أجد في المصادر التي أشار إليها الباحث ما يدل على ذلك . وعلى العكس من ذلك فإن النص المنقول من ابن فرحون والذي نقله السخاوي أيضاً في التحفة اللطيفة يدل على أن المدرسة موجودة قبل أن يأتيها الشيخ إبراهيم بمدة وأنه رممها كي لا تسقط .

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ١١٢/٥

(٤) انظر وفاء الوفا ٢٦٥/١

(٥) انظر الذيل على الروضتين ١٥١

(٦) وفاء الوفا ٢٦٥/١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أخيه ، وأنه احتاج لذلك أن يقنع قاضي القضاة بمصر ، الذي استصدر له مرسوماً من السلطان محمد بن قلاوون وصله مع قافلة الحج في الموسم[(١)] وهذا يعني أن العمل فيها من الوظائف الممتازة التي تحتاج إلى مرسوم سلطاني وأن أمرها كان بيد السلطان ووكلائه .

وكان للمدرسة أوقاف جيدة في المدينة ودمشق وميافارقين ، وفي عهد السمهودي أصابها ما أصاب بعض الأوقاف فعطلت واستولى الناظر عليها لبعض الوقت[(٢)].

٣ . المدرسة الجوبانية :

بنيت بأمر جوبان بن تدوان نائب السلطان في مناطق آسيا الوسطى سنة ٧٢٤هـ ، وخصصت فيها غرفة لتكون مدفناً له[(٣)] وقد أنفق على بنائها بسخاء حتى أن المشرف على بنائها شكا له أن طين المدينة غير قابل لعمل الآجر الذي سيستخدم في بنائها (فقال : يحمل ذلك من بغداد على ظهور الجمال)[(٤)] .

تقع المدرسة عند باب السلام في موقع الحصن العتيق ، وهو دار الإمارة سابقاً ، وينقل السخاوي قول الفيروزابادي عنها (ليس بها (أي المدينة) مدرسة ولا رباط ولا دار أحسن بناء وأتقن ، وأمكن وأمتن ، وأحصن منها وأشرق ..)[(٥)] .

٤ - المدرسة الباسطية :

أنشأها عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم ، زين الدين الدمشقي (٧٨٤ - ٨٥٤ هـ) ناظر الخاصة والكتابة عند السلطان[(٦)] وسلمها للشيخ علي بن إبراهيم الحسيني العجمي ، وكان معجباً به[(٧)] . هذه المدرسة قرب باب السلام أيضاً ،

---

(١) انظر نصيحة المشاور ٧٧

(٢) انظر وفاء الوفا . المصدر ٢٦٥/١

(٣) اهتم عدد من وجهاء الفترة التي ندرسها ببناء مدرسة أو رباط في المدينة لتكون إحدى غرفه مدفناً له ، منهم جمال الدين الأصفهاني وأسد الدين شيركوه وجوبان هذا ، وقد دفن الأولان حيث أرادا بينما منع أمير المدينة طفيل بن منصور دفنه في مدرسته لأسباب سياسية . انظر التحفة اللطيفة ٤٣٢/١ .

(٤) التحفة اللطيفة ٤٣٣/١

(٥) السابق ٤٣٢/١ وانظر أيضاً تذكرة النبيه بأيام المنصور وبنيه ١٨١/٢

(٦) انظر ترجمته في الأعلام ٢٧٠/٣

(٧) الضوء اللامع ١٥٨/٥ . ١٥٩

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد سكنها ودرّس فيها عدد من العلماء المجاورين[١] واشتهرت إضافة إلى تدريس العلوم الشرعية والعربية بتدريس تجويد الخط[٢] .

٥. المدرسة الأشرفية ، أو السلطانية ، أو مدرسة قايتباي :

وهي المدرسة التي أمر ببنائها السلطان المملوكي الأشرف قايتباي (٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ) وذلك عام ٨٨٧هـ ، فبنيت في الجهة الغربية من المسجد النبوي بين باب السلام وباب الرحمة وكانت متصلة برباط يتبعها ، والمبنى كبير من ثلاث طبقات إحداها تحت الأرض (قبو) ، وكان في جداره ثلاثون فتحة موزعة على طبقاته ، وقد أثارت الشبابيك المطلة على الحرم اعتراضات الكثيرين (وقامت على السلطان الأشلّة في ذلك ، وأفتى بعض العلماء بأن ذلك لا يجوز ، فإن حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته وهو حي ..)[٣] امتد العمر بهذه المدرسة حتى عصرنا الحديث حيث أزيلت في التوسعة السعودية الأولى سنة ١٣٦٩ هـ . وتخرج منها كثيرون ..

إضافة إلى المدارس السابقة يتردد أسماء مدارس أخرى ولا نجد تفصيلات عنها منها :

٦. المدرسة المزهرية :

وتقع قرب باب الرحمة ، ويبدو أنها كانت موجودة قبل المدرسة الأشرفية ، فقد ذكر السخاوي أنه سكن فيها أثناء مجاورته في المدينة[٤] .

٧. المدرسة الأركوجية :

وتقع في جهة باب السلام أيضاً . يذكر ابن فرحون أن الشيخ علياً الواسطي كان ينزل فيها[٥] .

٨. المدرسة الزمنية :

بناها الشمس بن الزمن ناظر عمارة المسجد النبوي أمام سوق المدينة .

---

(١) انظر التحفة اللطيفة ٥٠/١

(٢) انظر الضوء اللامع ٢/٥

(٣) بدائع الزهور ١٩٦/٣ وانظر وفاء الوفا ٦٤٣/٢ ـ ٦٤٥

(٤) انظر التحفة اللطيفة ٥٠/١

(٥) نصيحة المشاور ٦٩

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٩ . المدرسة الحنفية :

بناها يازكوخ أحد أمراء الشام في موقع دار أبي بكر الصديق المسماة دار ريطة .

١٠ . المدرسة السنجارية :

وتقع مقابل باب السلام(١) .

مناهج الدراسة والحصيلة الثقافية :

كانت حلقات العلم في المسجد النبوي والمدارس المنتشرة حوله تدرس مناهج متقاربة ، وكان الشيوخ يقرؤون كتباً محدودة تتضمن مادة غزيرة من العلم الذي يتخصصون فيه ويقرؤه الطلاب عليهم . وكان الشيخ يفيض في شرح مادة الكتاب ، وقد يضيف عليها ما يفتح الله عليه ، ويتبين لنا من استعراض الكتب التي درّسها الأعلام المذكورون في كتب التراجم في ذلك العصر أن المنهج الدراسي واسع ، يجمع لطالب العلم فنوناً شتى قبل أن يتخصص في علم واحد ، وكأنه يقيم له بنية أساسية قوية تستفيد من حصيلة التراث الذي أبدعه العلماء من قبل .

ويبدأ المنهج بدراسة القرآن الكريم - وربما بحفظه - ثم دراسة التفسير والحديث والنحو والصرف ، فإذا استوفى الطالب ذلك قرأ كتباً أكثر تعمقاً واستمع لدروس في القراءات القرآنية وفي العلوم الأخرى تعد مرحلة متقدمة وينتقل طالب العلم بين حلقات المسجد النبوي حسب العلوم التي يرغب في التزود منها ، وإذا كان الطالب من المقيمين في إحدى المدارس تعلم المنهج الذي تدرسه أولاً ، وفي الغالب كانت هذه المناهج تبدأ بعد مرحلة حفظ القرآن ، وتدرس العلوم الدينية علوم اللغة العربية فنقرأ مثلاً في ترجمة **ابن الجلال محمد بن أحمد بن طاهر** المولود في المدينة المنورة سنة ٨٥١ هـ أنه (حفظ القرآن وأقبل على التحصيل ، فأخذ ببلده عن **محمد بن مبارك** العربية ، ولازم **أحمد بن يونس** فيها ، وفي المنطق والمعاني والحساب ، وكذا أخذ الصرف عن **الشهاب**

(١) ذكر المدارس الثلاثة المشار إليها في الفقرات ٩ و ١٠ و ١١ الأستاذ ناجي الأنصاري في كتابه التعليم في المدينة المنورة وقال في الحاشية أنه استخلصها من مواقع متفرقة في التحفة اللطيفة والضوء اللامع للسخاوي ، ولم أتمكن من تحديد أرقام الصفحات في المصدرين المذكورين . انظر التعليم في المدينة المنورة ٢٩٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأبشيطي والفقه في الابتداء عن عثمان الطرابلسي ، والأصلين عند **السيد السمهودي**)[١] .

حفظ المتون من اساسيات المنهج التعليمي

ويهتم المنهج الثقافي في تلك الفترة بحفظ المتون في عدة علوم ويعدها ضرورة ينبغي أن يقوم بها الطالب بعد حفظ القرآن ، والمتون نصوص يحفظها الطالب حرفياً ، وقد تكون منظومة ليسهل حفظها ، باستثناء الحديث الشريف حيث تحفظ نصوصه كما وردت في كتب الحديث ، وقد شاع حفظ الأربعين حديثاً التي اختارها النووي وشرحها واشتهرت باسم الأربعين النووية ، فمثلاً نقرأ في ترجمة **محمود بن أحمد بن إبراهيم المدني** أنه (حفظ أربعين النووي ومنهاجه ، والمنهاج الأصلي ، وألفية الحديث ، والنحو)[٢] .

ويأتي بعد المتون الشروح ، وهذه تدرس ولا تحفظ ، وقد تميز العصر الذي ندرسه بأنه عصر الشروح إذ كثر التأليف فيها ، بدءاً بشروح الحديث ووصولاً إلى شروح المنظومات ، فكان شيخ الباسطية – مثلاً – نور الدين علي يدرس الكافية وشرحها وبعض شرح الشمسية[٣] .

العلوم الطبيعية جزء من منهج متقدم

وكان من ضمن المنهج الثقافي في بعض الحلقات والمدارس دراسة المنطق واشتهر من مؤلفاتها كتاب (ايساغوجي) وقد شرحه أحد العلماء المجاورين في المدينة ودرّسه لعدد من طلابه[٤] . يضاف إلى هذا المنهج الثقافي بعض الكتب الصوفية التي شاعت في ذلك العصر ، فقد كان التصوف منتشراً انتشاراً واسعاً وكان سلوكياً أكثر منه ثقافياً ولكن طلاب العلم وبعض المثقفين في أصول التصوف يهتم بقراءة كتب في هذا الموضوع وربما حفظ المتون الموضوعة ، ومر بنا في استعراض حلقات

---

(١) الضوء اللامع ٣١٤/٦ .

(٢) الضوء اللامع ٥٣٩/١٠ .

(٣) السابق ٥٧/١ .

(٤) انظر ص ٧٦ من هذا البحث .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العلم في المسجد النبوي أن الطلاب في بعض تلك الحلقات كانوا يدرسون الجبر والمقابلة والحساب ، وطبيعي أن تهتم المدارس بهذه العلوم أيضاً بنسب متفاوتة وتجعلها ضمن منهج الدراسة الأساسي. وربما يكون من حسن حظ أبناء العصر الذي ندرسه أنه تسلم تراثاً قيماً واسعاً من أبناء العصور السابقة يستطيع أن يبني ثقافة مكينة لطلاب العلم المجتهدين . وقد كانت هذه الثقافة متاحة في المدينة نفسها . سواء عن طريق أبنائها الذين حصلوا درجات عليا من العلوم ، أو عن طريق العلماء المجاورين الذين يتصدرون للتدريس في حلقات المسجد النبوي والمدارس .

الرحلة في طلب العلم عند أهل المدينة

غير أن بعض طلبة العلم لم يكتفوا بما وصل إلى المدينة ، فشدوا الرحال إلى شيوخ لم تتح لهم الفرصة للوصول أو للإقامة في المدينة ، أو لم يتح لطالب العلم أن يتتلمذ عليه في المدينة فقصده في بلده ، ونجد في كتب التراجم أسماء كثيرة لأعلام مدنيين ارتحلوا إلى البلدان القريبة والبعيدة سعياً وراء شيوخ معينين ، فقد ارتحل **محمد بن محمد بن أحمد الكازروني المدني** إلى القاهرة ليقرأ على **العز بن الفرات** تساعيات ابن جماعة[١] وارتحل إلى دمشق ليأخذ عن **ابن الجزري** القراءات القرآنية وصحب شيخه في تجوله حتى دخل معه اليمن ، وارتحل **محمد بن عبد العزيز الكازروني المدني** إلى الشام ليأخذ عن عدد من شيوخها[٢] ، ووصلت الرحلة ببعضهم إلى اليمن جنوباً والقسطنطينية شمالاً للغرض نفسه[٣] ولنتصور جهد هؤلاء في الرحلة طلباً للعلم ننظر في رحلات أحدهم هو **محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب** .. الذي ولد بالمدينة سنة ٨٥١ هـ وتلقى تعليمه فيها على يد عدد من الشيوخ ثم رحل إلى القاهرة ليأخذ الفقه من **الأمين الأقصرائي** ثم سافر إلى الشام فقرأ على عدد من شيوخها في الحديث وشرحه ثم انتقل إلى حلب ، ثم القدس ، وعاد إلى القاهرة مرة أخرى فقرأ على السخاوي[٤] .

---

(١) السابق ١٩٨/٩
(٢) السابق ٦٠/٨
(٣) السابق ٢١٩/٨
(٤) السابق ١٠٩/٨

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الكتاتيب :

النقطة الأخيرة التي أقف عندها في التعليم هي نقطة البداية :

أول مؤسسة تعليمية إسلامية

الكتاتيب ، حيث يبدأ الطفل في خطواته الأولى مع العلم ، وهي قديمة في المدينة المنورة ترجع إلى عهد عمر بن الخطاب ، الذي جمع أولاد الصحابة الغائبين في الجهاد ، وجعل لهم في كل حي رجلاً يعلمهم القرآن ، وكتب لأمراء الأمصار أن يفعلوا ذلك وينفقوا عليه من بيت المال ، فكانت الكتاتيب أول مؤسسة تعليمية في المجتمع الإسلامي . وقد انتشرت الكتاتيب في معظم المدن الإسلامية وصار التعليم فيها مهنة لفئة من الناس ، وظهر مصطلح (معلم الصبيان) واتسع منهج الدراسة فيها فشمل تعلم القراءة والكتابة وشيء من الحساب . وقد ورث العصر الذي ندرسه الكتاتيب من العصور السابقة ، فكان في المدينة عدد لا نعرفه من الكتاتيب ، ترتبط بالمعلمين الذين يدرسون فيها ، وقد جرت العادة أن يكون بعضها في المسجد النبوي وغالبيتها في بيوت المعلمين ، أو بعض الأربطة. وليست لدينا معلومات مفصلة عنها في ذلك الوقت ، غير أننا نستنتج من عبارات وردت في ترجمات بعض أهل المدينة والوافدين إليها أنها كانت منتشرة في المدينة ، فقد عمل فيها عدد منهم ، وكان المجاور الذي لا يملك المال الكافي يجد فرصة لتعليم الصبيان بسهولة ، مثل **محمد بن محمد بن ميمون الجزائري** الذي جاء إلى المدينة وأقام فيها خمس سنوات يؤدب الأطفال[(١)] ومثل **محمد بن أحمد السيني** الذي كان في كتابه مئة متعلم[(٢)] **وأحمد بن أبي بكر الأنصاري** الذي (كان يتكسب أثناء مجاورته بإقراء الأطفال)[(٣)] وكان بعض شيوخ الكتاب على درجة

(١) انظر العقد الثمين ٣٢٧/٢

(٢) نصيحة المشاور ١٤٤

(٣) الضوء اللامع ٢٦٣/١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عالية من العلم بالقراءة وإتقانها ، **حتى إن السخاوي نفسه قرأ على أحدهم القرآن**[(١)].

ثانيا : العلماء ومؤلفاتهم

المحور الثاني في الحياة الثقافية في المدينة المنورة هو العلماء ومؤلفاتهم ذلك أن العلماء هم الذين يحركون عجلة الثقافة ، ويمنحونها صفة الإبداع أو التقليد ، وبقدر ما يكون في المجتمع – أي مجتمع – من العلماء المبدعين بقدر ما تنشط ثقافته وتتطور . وإذا غاب هؤلاء أو قلوا تجمدت الحياة الثقافية أو تحولت إلى حركة تقليدية تعيش على تراثها القديم في أحسن الأحوال ولا تضيف له شيئاً ، وربما تسيء التعامل مع ذلك التراث وتصبح جامدة متخلفة .

وفي القرون التي يدرسها البحث **يتفاوت ظهور العلماء المبدعين من جيل إلى جيل** ، فتراه يقل حيناً ويزداد حيناً آخر ، ويشتد في جيل ثالث فتعج المدينة بالعلماء ، وتكثر فيها المؤلفات المنسوخة والمكتوبة لأول مرة وتصبح مركزاً ثقافياً متميزاً .

وثمة عامل مؤثر في هذه القضية تتميز به المدينة ومكة .. **هو المجاورة** ، ففي بعض السنوات يفد إلى المدينة علماء مشهورون ، ليقيموا فيها بضع سنوات أو إلى آخر حياتهم ويواصلوا عطاءهم العلمي في مستقرهم الجديد ، مستشعرين بقوة روحية تعينهم على مزيد من الإبداع فيجلس بعضهم في المسجد النبوي .. ويجتهد بعضهم الآخر في أن يجد موقعاً دائماً له في الروضة الشريفة ليكتب هناك . ويلتقي العلماء من أنحاء العالم الإسلامي ، ويتحاور بعضهم في قضايا مختلفة ، ويأخذ بعضهم من بعض ، ويقرأ بعضهم على بعض .. فتنفتح آفاق جديدة وثرية من الإبداع . ونجد في العلماء الذين عاشوا في المدينة ، سواء كانوا مولودين فيها ، أو جاؤوا من بلاد أخرى وأقاموا فيها ، فئتين :

علماء تخصصوا في التدريس دون التأليف

فئة تقتصر على جمع العلم واستيعابه والإفاضة به على الطلاب في الدروس والحلقات .. غير أنها لا تهتم بالتأليف ، فلا يُؤثر عنها أي كتاب . وهذه فئة يتركز عطاؤها في الجمع والنقل للآخرين .. وكثيراً ما يكون علماء هذه الفئة مبدعين ..

---

(١) السابق ٦٤/١١

لكنهم يوجهون إبداعهم إلى دروسهم الشفهية ومناقشاتهم ، فإن لم يقيض لهؤلاء العلماء تلاميذ يكتبون عنهم ، ويحولون ما يكتبونه إلى مؤلفات مستقلة اقتصر ذكرهم على الوصف بالعالمية وإفادة الطلاب الذين يحضرون مجالسهم .. أما الفئة الثانية فتهتم بالتأليف وتصنع الكتب سواء كانت جديدة في موضوعها ، أو شروحاً وحواشي تتضمن إضافات وتعديلات لما سبق أن كتبه علماء آخرون ، وقد يكتب هؤلاء مؤلفاتهم بأنفسهم ، وقد يملونها فيكتبها بعض طلابهم ، ثم يراجعونها ويجيزونها .. وقد يقرؤها آخرون عليهم .. وفي جميع الحالات تكسب الثقافة إضافات ثابتة جديدة تتناقلها الأجيال التالية .

وقد عرفت المدينة هاتين الفئتين من العلماء ، وربما كانت الفئة الأولى أكثر عدداً بسبب كثرة حلقات العلم في المسجد النبوي والمدارس التي أنشئت على التوالي ، وقد ذكر السخاوي أعداداً كبيرة منهم في مؤلفيه : التحفة اللطيفة والضوء اللامع .

غير أنني - لضيق المجال - سأقتصر على العلماء من الفئة الثانية الذين اهتموا بالتأليف وأثر عنهم مؤلفات أضافت إلى المكتبة الإسلامية إبداعاً جديداً ، سواء كانوا من الذين ولدوا ونشأوا في المدينة أو من الذين وفدوا إليها للإقامة والمجاورة .

ولا شك أن العلماء المجاورين قد ألفوا عدداً من كتبهم قبل أن يصلوا إلى المدينة ، غير أن إقامتهم في المدينة ستجعل لمؤلفاتهم حضوراً متميزاً بين طلاب العلم والعلماء فيها . فيقرؤها بعضهم على صاحبها ، أويلقيها المؤلف ثانية على من يحضر مجلسه في المدينة ، أو يذاكره منها آخرون ، فعندما جاء **المحب المطري** - العالم المكي المشهور إلى المدينة سنة ٦٤٧ هـ أقام فيها مدة من الزمن جلس عدد من العلماء في حلقته ، منهم **القطب القسطلاني وعبد الله بن عبد العزيز المهدوي وجمال الدين المطري** .. وغيرهم[(١)] وطبيعي أن يغتنم هؤلاء فرصة وجود المحب ليسمعوا منه وليسألوه فيما كتب وربما يحاورونه ويناقشونه ..

وقد تعدى الأمر مجرد حضور الحلقة والحوار إلى أن يتتلمذ بعضهم على بعض رغم علو كل منهم في منزلته وهذا لون من التواضع والاستزادة من العلم ،

(١) انظر العقد الثمين ٦٥/٣

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومثال ذلك عندما جاء **السخاوي** إلى المدينة جلس إلى **أحمد بن علي بن محمد بن موسى** وقرأ عليه[(١)] ، وجلس إلى **محمد بن عبد الله بن الشمس المدني العوفي** وطلب منه الإجازة فأجازه[(٢)] وجاء **محمد بن عبد الرحمن القاضي** فجلس إلى قاضي المالكية بالمدينة سنة ٧٩٨ هـ . فقرأ عليه كتاب الشفاء[(٣)] . وعندما جاء **القرطبي** العالم المفسر الكبير (ت ٦٣١ هـ) إلى المدينة التقاه به **أبو شامة المقدسي** ، وكان وقتها في المدينة أيضاً ، وسمع منه رواياته ، وطلب أن يجيزه في رواياتها فأجازه[(٤)] .

وجاور **إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي** ، وكان إماماً في الإسناد ولقب بمسند الحرمين . فأخذ عنه عدد من الشيوخ[(٥)] .. والشواهد كثيرة نجدها في ترجمات الأعلام في تلك الفترة .

وقد كان لبعض هؤلاء العلماء مكتبات ضخمة تجمع في مجلداتها قدراً وافراً من التراث العلمي في أنحاء العالم الإسلامي ، ويروي **ابن فرحون** أن الشيخ **عبد الله بن حجاج المغربي المشهور بمكشوف الرأس** (ت ٧٠١ هـ) كانت لديه مكتبة ضخمة أتى بها من بلاده (مشتملة على أصول وأمهات ودواوين من تفسير القرآن وكتب الفقه والنقد والحديث والتاريخ والطب والمنطق والحكمة وعلوم شتى ..) فلما بيعت بعد وفاته وهجرة أولاده إلى مصر (ملأت المدينة حتى صار في كل بيت منها جانب من علوم لا يعرفها أحد من أهل هذا الزمان ولا يفهمها إلا من عالج أصولها وأدرك شيوخها ..)[(٦)] وسوف نستعرض فيما يلي أبرز العلماء الذين عرفتهم المدينة في فترة الدراسة ، ممن لهم مصنفات مذكورة .

عبد الله بن محمد بن عبد الله النكزاوي (٦١٤ - ٦٨٣ هـ)[(٧)]

ولد بالمدينة المنورة وأخذ العلم في المسجد النبوي على عدد من الشيوخ وتعمق في القراءات ، انتقل إلى الإسكندرية فسكنها ودرّس فيها . وله عدة مصنفات منها : الشامل في القراءات السبع ، الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء .

---

(١) الضوء اللامع ٤٢/٢
(٢) الضوء اللامع ١١٨/٧
(٣) الضوء اللامع ٣٦/٨
(٤) الذيل على الروضتين ١٦٢
(٥) العقد الثمين ٢٥٢/٣
(٦) نصيحة المشاور ١٥٢ - ١٥٤
(٧) الأعلام ١٢٥/٤ و غاية النهاية ٤٥٢/١ و حسن المحاضرة ٢٨٨/١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

محمد بن أحمد بن خلف المطري الخزرجي (٦٧٦ ـ ٧٤١ هـ)[1]

ولد بالمدينة المنورة في أسرة تتوارث وظيفة رئيس المؤذنين بالمسجد النبوي ، وأخذ العلم على يد والده والعلماء الموجودين بالمدينة آنئذ ، ثم سافر إلى القاهرة فأخذ عن عدد من علمائها ، وعاد واستقر في المدينة في رئاسة المؤذنين ، واسندت إليه نيابة القضاء والخطابة ، وتصدر للتدريس في المسجد النبوي ، وصف بأنه إمام عالم مشارك في العلوم عارف بأنساب العرب وله شعر . صنف كتاباً في تاريخ المدينة اهتم فيه بمعالمها الرئيسية وبعض أحداثها ، قرأ عليه كثيرون وانتشر كتابه بين الطلاب والشيوخ في عصره وقرأه عليه بعضهم .

محمد بن يوسف بن الحسن .. الزرندي (٦٩٣ ـ ٧٤٧ هـ)[2]

ولد بالمدينة في أسرة الزرندي المعروفة بالعلم والعلماء وتلقى العلم على والده ـ وكان من علماء المدينة ـ ثم على يد عدد من الشيوخ في المسجد النبوي . اهتم بالمذهب الحنفي وتعمق فيه ، ثم تصدر لتدريس الفقه والحديث . أخذ عنه عدد من طلاب العلم ، وصنف عدداً من الكتب منها : درر السمطين في مناقب السبطين ، بغية المرتاح .

سافر سنة ٧٤٣ هـ إلى شيراز وتولى قضاءها وبقي فيها حتى مات .

علي بن محمد بن فرحون (٦٩٨ ـ ٧٤٨ هـ)[3]

هو شقيق عبد الله بن فرحون ، والده مجاور هاجر من تونس وأمه مدنية من الشريفات الحسينيات . تلقى تعليمه الأولي على يد والده ثم أكمله على يد شيوخ المدينة في وقته ، برع في الفقه والحديث واللغة والأدب ونظم الشعر ، درس الفقه في المسجد النبوي ، وكان له مجلس وعظ كل جمعة .

قام برحلات عدة إلى مصر والشام ولقي العلماء والأدباء ، واستطاع أن يستصدر مرسوماً سلطانياً بتعيين أخيه عبد الله في قضاء المدينة ، من مؤلفاته : تاريخ الأخبار والتعريف بنسب المختار .، الزاهر في المواعظ والحكايات والأحاديث والذخائر ، نزهة النظر وتحفة الفكر في شرح لامية العجم ، ديوان شعري في المدائح النبوية .

---

(١) التحفة اللطيفة ٤٦٦/٣ و الأعلام ٣٢٥/٥

(٢) الدرر الكامنة ٢٩٥/٤

(٣) نصيحة المشاور ٢٦٩ ـ ٢٧١ و الدرر الكامنة ١١٥/٣ و الأعلام ٦/٥

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أبو العباس أحمد التادلي (من أبناء القرن الثامن الهجري)[١]

أحد العلماء المجاورين في المدينة ، وصفه معاصره ابن فرحون بأنه فقيه عالم أصولي فروعي ، عينه القاضي شرف الدين الأميوطي الذي تولى قضاء المدينة من ٧٢٨ ـ ٧٤٥هـ نائباً له في القضاء ، له عدة مؤلفات منها : شرح عمدة الأحكام ، شرح رسالة ابن أبي زيد ، شرح تنقيح القرافي . وقد وصفت شروحه بأنها من أحسن ما وضع من الشروح .

عبد الله بن محمد بن أحمد بن خلف المطري الخزرجي (٦٩٨ ـ ٧٦٥ هـ)[٢]

ويرد اسمه في الكتب التراثية (العفيف المطري) وتنتسب أسرته إلى سعد بن عبادة الأنصاري ، عرفت بتولي الآذان في المسجد النبوي ، وكان العفيف هذا رئيس المؤذنين .

اهتم العفيف بالحديث والتاريخ وصنف فيهما وكان أحد الحفاظ في المدينة ، وقام برحلات لطلب العلم إلى مكة ومصر والشام والعراق . من مؤلفاته : الإعلام فيمن دخل المدينة من الأعلام .

عبد الله بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي (٦٩٣ ـ ٧٦٩ هـ)[٣]

ولد بالمدينة لأب مهاجر من تونس ، وأم مدنية حسينية ، وكان والده عالماً في الفقه والحديث ومجتهداً في العبادة ، فوجه أولاده للاشتغال بالعلوم الدينية ، وكان عبد الله هذا أكبرهم ، فحفظ القرآن واشتغل في علوم العربية حتى أتقنها ثم درس الحديث والفقه على عدد من الشيوخ الكبار مثل عز الدين يوسف الزرندي وسراج الدين الدمنهوري وزين الدين الطبري ومحمد بن جابر الوادي الآشي كما استفاد من العلماء الوافدين إلى المدينة وكان يجتهد في حضور مجالسهم وسماع دروسهم وما لبث أن برع في تلك العلوم وتصدر للتدريس فيها .

تولى عبد الله بن فرحون القضاء نيابة عن عدد من القضاة وتولى التدريس في المدرسة الشهابية وكان مهتماً للتصدي للبدع وما أحدثه بعض الشيعة المغالين ،

---

(١) السابق ٢١٦

(٢) الدرر الكامنة ٢٨٤/٢ و ذيل طبقات الحفاظ ١٤٤ و الأعلام ١٢٦/٤

(٣) انظر : نصيحة المشاور ٢٦٣ و الدرر الكامنة ٣٠٠/٢ و التحفة اللطيفة ٤٠٣/٢ و الديباج المذهب ١٤٤ و الأعلام ١٢٦/٤

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والتمسك بالسنة ، ونشر المذهب المالكي في المدينة ، ويعد هو وأبوه من أعلام المذهب ، اهتم بالتأليف في الحديث والتفسير واللغة والتاريخ ، وله عشر مصنفات مازال معظمها مخطوطاً هي :

١ - التيسير في علمي البناء والتفسير .
٢ - الدر المخَلَّص من التقصي والمخلص .
٣ - شرح قواعد الإعراب لابن هشام .
٤ - شفاء الفؤاد في إعراب بانت سعاد .
٥ - العدة في إعراب العمدة .
٦ - كشف الغطا في شرح الموطأ .
٧ - كفاية الطلاب في شرح مختصر الجلاب .
٨ - المسالك الجلية في القواعد العربية .
٩ - نصيحة المشاور وتعزية المجاور (في تاريخ المدينة وبعض أعلامها) وقد ترجم لنفسه ووالده فيه .
١٠ - نهاية الغاية في شرح الآية . توفي بالمدينة المنورة .

إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن الخشاب (٦٩٨ - ٧٧٥ هـ)[(١)]

من العلماء الذين جاوروا بالمدينة وتولوا قضاءها ، ولد في القاهرة ودرس على عدد من علمائها وتولى منصب القضاء في عدة بلدان ثم ولي قضاء المدينة سنة ٧٥٤ هـ لمدة سنتين ثم نقل ثم أعيد سنة ٧٧٢ هـ وظل فيها حتى مات .

كان عالماً فقيهاً محدثاً وخطيباً بليغاً ، قرأ عليه عدد كبير من طلاب العلم منهم الحافظان الهيثمي والعراقي وابنه وأبو بكر المراغي وابن سلامة المكي وغيرهم له منظومات كثيرة منها تخميس البردة . وله مصنفات في الفقه وبعض الشروح . منها : المناسك الكبرى ، المناسك الصغرى ، المناسك الوسطى ، شرح قطعة من المنهاج للنووي ، ديوان الخطب .

إبراهيم بن عبد الله الحكري (.... - ٧٨٠ هـ)[(٢)]

من العلماء النحويين الكبار ، أصله من مدينة الحكرة قرب الطائف ، تلقى العلم في الطائف ومكة ورحل إلى مصر فقرأ على عدد من شيوخها ثم عاد

---

(١) التحفة اللطيفة ١٠٢/١-١٠٣.

(٢) بغية الوعاة ٤١٥/١ و الأعلام ٤٩/١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إلى المدينة وتولى القضاء فيها مدة من الزمن ودرّس في المسجد النبوي . له شرح ألفية ابن مالك في النحو .

علي بن محمد الزرندي (٧٠٣ ـ ٧٧٢ هـ)[١]

ولد بالمدينة المنورة من أسرة أنصارية هاجر بعض أصولها إلى زرند (في بلاد فارس) وعاد منهم أحد أجداده إلى المدينة . وقد عرفت هذه الأسرة بماض مجيد وطويل في علوم الفقه والحديث واللغة ، وأحصى الدكتور محمد الخطراوي أكثر من خمسين عالماً فيها ظهروا في المدينة قبل علي هذا[٢] .

تلقى العلم على يد مجموعة من العلماء في المدينة مثل محمد بن أحمد المطري ومحمد بن علي الغرناطي والزبير بن علي ومحمد بن محمد الوادي آشي وغيرهم ، ورحل إلى دمشق وحلب والقاهرة وبغداد وخوارزم وسمع من شيوخها وحصل على إجازات قيمة . تصدر للتدريس بالمسجد النبوي وأخذ العلم منه كثيرون ثم ولي قضاء الحنفية وولي الحسبة فكان (سيفاً لأهل السنة قامعاً للمبتدعة) وكتب مقامة بديعة بعنوان (المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين) ، حققها ودرسها الدكتور محمد عيد الخطراوي .

إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون (٧٣٠ ـ ٧٩٩ هـ)[٣]

ولد بالمدينة المنورة ونشأ في رعاية والده فاشتغل بالعلم وتلقى تعليمه الأولي على يديه ثم أخذ من شيوخ المدينة في عصره وبرع في الفقه . تصدر للتدريس والفتيا ، ثم ولي قضاء المالكية سنة ٧٩٣ هـ وله مؤلفات كثيرة تعتبر من أعمدة المذهب المالكي منها : تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام ، درة الغواص في محاضرة الخواص ، تسهيل المهمات في شرح جامع الأمهات ، الديباج المذهب في تراجم أعيان المذهب المالكي ، طبقات علماء الغرب .

أحمد بن محمد بن الجلال الخجندي (٧١٩ ـ ٨٠٢ هـ)[٤]

من العلماء الذين جاوروا في المدينة طويلاً (أربعين سنة) تلقى العلم ببلدة (خجندة) ثم رحل إلى بلاد كثيرة وأخذ فيها عن عدد كبير من العلماء حتى

---

(١) الدرر الكامنة ١٤٢/٣ و التحفة اللطيفة ٢٦٨/٣ و المرور بين العلمين في مفاخرة الحرمين . تحقيق وتقديم د. محمد عيد الخطراوي ص٥ .

(٢) المرور بين العلمين ، ص ٥ .

(٣) الدرر الكامنة ٤٨/١ و التحفة اللطيفة ١٣١/١ و الأعلام ٥٢/١

(٤) الضوء اللامع ٢٠١/٢ و الأعلام ٢٢٥/١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

صار كما يقول عنه ابن حجر (القدوة في العلم والعلامة الذي منه الأعلام تتعلم) . تصدر للتدريس والوعظ بالمسجد النبوي وأخذ عنه العلم أعداد كبيرة من الطلاب واستجازه الشيوخ . اهتم بالتأليف فكتب في الفقه والتفسير واللغة والتصوف ، من مؤلفاته : شرح قصيدة البردة ، الأنوار التفريدية في شرح الجوامع الأربعينية ، رسالة في علم الكلام ، فردوس المجاهدين ، أرجوزة في أسماء الله وصفاته في نحو ألف بيت .

عبد الرحيم بن حسين بن أبي بكر العراقي (٧٢٥ ـ ٨٠٦ هـ)[١]

من علماء الحديث المشهورين ولد في القاهرة لأسرة كردية مهاجرة من العراق ، تلقى العلم على شيوخ كثيرين وتلقى عنه آخرون منهم ابن حجر العسقلاني ، رحل إلى بلاد عدة ، وجاء إلى المدينة فأقام فيها مدة من الزمن لم تذكرها المصادر التي رجعت إليها وتولى قضاء المدينة ودرّس الحديث وعلومه في المسجد النبوي ، وهو صاحب الألفية في علوم الحديث وله شرح لها .. ومن مؤلفاته أيضاً : ألفية في علوم القرآن ، وتقريب الأسانيد ، والتقريب والإيضاح في مقدمة ابن الصلاح ، والشفاء من جهات المتن والإسناد .

أبو بكر بن الحسين بن عمر العثماني المراغي (٧٢٧ ـ ٨١٦ هـ)[٢]

ولد بالقاهرة وتلقى العلم على عدد من شيوخها كالتقي السبكي والأسنوي ، ثم هاجر إلى المدينة وأكمل علمه على يد عدد من العلماء فيها كالبدر بن فرحون وابن سبع ، وظهرت نباهته فأجازوه وتصدر للتدريس والفتيا في المسجد النبوي ، ثم أسندت إليه وظيفة القضاء ثم الخطابة والإمامة في المسجد النبوي .

تلقى العلم على يده كثيرون منهم أولاده الأربعة الذين نبغوا وصاروا علماء وكان اسم كل واحد منهم (محمد) . اهتم بالتأليف فصنف كتاباً في تاريخ المدينة اهتم فيه بمعالمها والأحداث التي مر بها كل معلم ، وسماه (تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة) . كما صنف شروحاً ومختصرات لعدد من الكتب في الفقه منها : روائح الزهر وهو مختصر لكتاب الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم ، منافع الحرز ، الوافي بتكملة الكافي ، العمد في شرح الزبد .

---

(١) الضوء اللامع ١٧١/٤ و نزهة النفوس والأبدان ١٩٠/٢ و الأعلام ٣٤٤/٣

(٢) الضوء اللامع ٢٨/١١ و الأعلام ٦٣/٢

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

محمد بن يعقوب بن يحيى المغربي المدني (... ـ حوالي ٨٣٠ هـ)[١]

ولد بالمدينة المنورة وتلقى العلم على شيوخها واهتم بالمنطق والعقليات ، وسافر إلى بلاد العجم فاستزاد منهما ، ثم عاد للمدينة وتصدر للتدريس في المسجد النبوي والفتيا ، عين نائباً لقاضي المدينة مدة من الزمن وتميز في تدريس المنطق .

صنف في الفقه وكتب كتاباً في المنطق سماه مقدمة في المنطق ، وخمّس البردة . وكان يقرض الشعر .

محمد بن أحمد بن روزبة الكازروني (٧٥٧ ـ ٨٤٣ هـ)[٢]

ولد بالمدينة المنورة وأخذ العلم على الشيوخ في المسجد النبوي المقيمين والقادمين كالجمال الأميوطي والعز بن جماعة والجمال الخجندي والزين العراقي وأبي بكر المراغي وغيرهم .. ثم رحل إلى مصر والشام فأخذ عن عدد من علمائها وعاد إلى المدينة فتصدر للتدريس بالمسجد النبوي ، وما لبث أن ولي القضاء وصار (فقيه المدينة وعالمها ، لا تخلو المدينة ممن سمع منه ..) اهتم بتصنيف الشروح والمختصرات منها :

شرح مختصر التنبيه لابن غرارة ، مختصر المعنى للبارزي .

محمد بن أبي بكر المراغي (٧٧٥ ـ ٨٥٩)[٣]

واحد من أربعة أخوة يحملون الاسم نفسه ويتميز كل واحد منهم بلقبه وهم أبو الفتح (هذا المترجم له) وأبو الفضل وأبو اليمن وأبو الفرج .

كان والدهم مهتماً بالعلم فوجههم إليه ودرسوا على يديه المرحلة الأولى من تعليمهم في الفقه والحديث . فنبغوا كلهم واشتغلوا بالعلم والتدريس وتميز أبو الفتح إضافة لذلك بالتأليف ، كما تميز أبو اليمن بالاهتمام بالأدب . رحل أبو الفتح مع أبيه إلى القاهرة وسمع من عدد من علمائها آنئذ كالجمال الأميوطي والهيثمي ، وانتقل إلى اليمن وأخذ عن شيوخها ودرّس في بعض مدارسها . له عدة مؤلفات أهمها : المشرع الروي في شرح منهاج النووي ، تلخيص أبي الفتح لمقاصد

---

(١) الضوء اللامع ٨٧/١٠

(٢) التحفة اللطيفة ٤٩٨/٣

(٣) الضوء اللامع ١٦١/٧ ـ ١٦٢ و البدر الطالع ١٤٦/٢ و الأعلام ٥٨/٦

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفتح . وهو تلخيص لكتاب فتح الباري ، توفي في مكة ودفن فيها ، وصلى عليه الناس في دمشق أيضاً صلاة الغائب .

علي بن إبراهيم بن محمد السيد الزين الحسيني (٧٨٥ - ٨٦٠ هـ)(١)

من العلماء المجاورين في المدينة ، جاءها سنة ٨٤٠ هـ وبقي فيها حتى وفاته ، ودرّس في المسجد النبوي وقرأ عليه الكثيرون . اشتهر بأن له شرحاً لكتاب (ايساغوجي) يقع في أربعة مجلدات ، واشتهر بتدريس الكتاب الأصلي وشرحه ، وله مؤلفات أخرى .

إبراهيم بن أحمد بن عبد الكافي الحسيني (... - ٨٦٣ هـ)(٢)

هذا العالم شاهد من شواهد اهتمام خدام المسجد النبوي بالعلم وتفوق بعضهم فيه ، درس القراءات في المسجد النبوي على يد عدد من شيوخه وكذلك الفقه والحديث ، ثم رحل إلى مكة والقاهرة والقدس ودمشق ، وأخذ من علمائها ، وكان من شيوخه محمد الكيلاني والشهاب الشوائطي وابن الجزري وأبي الفتح المراغي والمحب المطري والجمال الكازروني وغيرهم .

اختص بخدمة الحجرة النبوية مدة طويلة ، ثم اضطر لمغادرة المدينة بسبب تهديد بعض الرافضة وانتقل إلى مكة وظل فيها حتى مات . صنف شرحاً على الشاطبية قرظه عدد من العلماء كما درس عليه القراءات عدد كبير من طلاب العلم في المدينة ومكة .

أحمد بن إسماعيل بن أبي بكر الأبشيطي (٨٠٢ - ٨٨٣ هـ)(٣)

يتردد ذكر هذا العالم بلقبه (الشهاب الأبشيطي) فقد أخذ عنه العلم كثيرون .. ولد ببلدة أبشيط في مصر ودرس في القاهرة على عدد من شيوخها مثل العز بن عبد السلام والشهاب الصهناجي والبرهان البيجوري والحافظ ابن حجر فحصّل علماً غزيراً في الحديث والفقه وأصوله وعلوم اللغة والمنطق ، وتصدر للتدريس في الأزهر وعكف على التأليف حتى انصرف عن معاشه وعرف بالزهد والتقشف والعبادة . حج سنة ٧٥٧ هـ ثم جاء إلى المدينة وجاور فيها

---

(١) الضوء اللامع ١٢٨/٥ و التحفة اللطيفة ٢١١/٣

(٢) انظر : التحفة اللطيفة ١٠١/١ - ١٠٢

(٣) البدر الطالع ٣٧/١ و الأعلام ٩٧/١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إلى نهاية حياته ، وتصدر للتدريس والفتيا في المسجد النبوي (وعظم انتفاع أهلها به وحفظوا من كراماته وبديع إشاراته ما يفوق الوصف) من مؤلفاته : ناسخ القرآن ومنسوخه ، إتقان الرائض في فن الفرائض ، شرح الرحبية ، شرح تصريف ابن مالك ، شرح قواعد ابن هشام ، شرح منهاج البيضاوي ، إسعاف الإخوان شرح ايساغوجي (في المنطق) .

وله منظومات عدة منها : منظومة أبي شجاع ، منظومة الناسخ والمنسوخ للبارزي .

أحمد بن مسدد بن محمد الكازروني (... ـ ٨٨٧ هـ)[(١)]

ولد بالمدينة وأخذ العلم عن عدد من شيوخ المسجد النبوي في عصره كالشهاب الأبشيطي وحسين بن الشهاب قاوان والسخاوي . واهتم بالأدب وقرض الشعر ، وقد استفاد منه طلاب العلم من خلال مصنفاته وشعره .

من أبرز مصنفاته : الحدائق الغوالي في قبا العوالي (مفاخرة بينهما) ، ورود النعم وصدور النقم (في حريق المسجد النبوي) ، نثر البديع من الأدب في زهر المراثي والندب .

محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (٨٣١ ـ ٩٠٢ هـ)[(٢)]

عالم موسوعي اشتغل ودرس وصنف في التفسير والحديث والتاريخ والأدب حوالي مئتي كتاب

ولد في القاهرة ونشأ فيها وحفظ القرآن ودرس العلوم على عدد من شيوخها في مقدمتهم ابن حجر العسقلاني (صاحب كتاب فتح الباري) ورحل إلى بلاد كثيرة ليأخذ من علمائها ، وقد زاد عدد من أخذ عنهم على أربعمئة عالم ، وأجاز له كثيرون .

بدأت صلته بالمدينة المنورة خلال زياراته لها في مواسم الحج حيث جاور في سنوات ٨٨٦ و ٨٨٧ و ٨٩٣ ـ ٨٩٤ هـ وأمضى عدة أشهر منها في المدينة وفي سنة ٨٩٨ هـ استقر في المدينة إلى وفاته .

---

(١) الضوء اللامع ٢/٢٢٥ و الأعلام ١/٢٥٧

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٨/ ٢ ـ ٣٢ و شذرات الذهب ٨/١٥ و الكواكب السائرة ١/٥٣ و النور السافر ١٦ و الأعلام ٦/١٩٤

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حرص السخاوي على أن يلتقي بأكبر عدد من العلماء في المدينة ، سواء المقيمون والمجاورون والزائرون لمدة قصيرة ، وقرأ على بعضهم وحصل على إجازات من بعضهم الآخر وأجاز لكثيرين ، ودرّس في المسجد النبوي من مؤلفاته : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع اثنا عشر جزءاً وهو من كتب التراجم الضخمة ، التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة وهو خاص بأعلام أهل المدينة حتى عصره وما زال قسم من الكتاب مفقوداً ، تاريخ المدينتين ، التاريخ المحيط ، طبقات المالكية ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، المقاصد الحسنة ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر .

وتعد تراجمه لأهل المدينة مصدراً غنياً لكثير من الأحداث ، فضلاً عن كونها مصدراً أساسياً لأعلامها . وقد ترجم لنفسه في الجزء الثامن من كتابه الضوء اللامع في ثلاثين صفحة فذكر معظم شيوخه ومؤلفاته وأهم أحداث حياته .

السمهودي (٨٤٤ ـ ٩١١ هـ)[1]

علي بن عبد الله بن أحمد بن علي الحسني السمهودي ، ولد بقرية سمهود في صعيد مصر ونسب إليها وبدأ تعليمه على يد والده ، وكان من أهل العلم ، فحفظ القرآن وحفظ بعض الحديث وقرأ في الفقه والتفسير ، ثم سافر إلى القاهرة فأخذ العلم على يد عدد من شيوخها مثل الجلال المحلي والشريف المناوي والنجم بن قاضي عجلون واليامي والجوجري .. وغيرهم

وفي سنة ٨٧٣ هـ وصل إلى المدينة المنورة ولازم الشهاب الأبشيطي وقرأ على عدد من الشيوخ الموجودين فيها آنئذ مثل أبي الفرج المراغي والعفيف ابن القاضي ناصر الدين ، كما سمع بمكة من الشيخة كمالية بنت محمد المرجاني وشقيقها الكمال أبي الفضل محمد والنجم عمر بن فهد ..ثم تصدر للإفتاء والتدريس في المسجد النبوي وفي بعض مدارس المدينة ، وتولى الإشراف على عدد منها كالمدرسة المزهرية والمدرسة الأشرفية ، ونال ثقة السلطان قايتباي فولاه الإشراف على الأموال التي يوزعها في المدينة ، وكذلك الأمير داود بن عمر ، وقد لقيه السخاوي وأخذ عنه

(١) الضوء اللامع ٢٤٥/٥ و النور السافر ٥٨ و الأعلام ٣٠٧/٤ و تحفة المحبين والأصحاب ٢٧١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ووصفه بأنه (إنسان فاضل متقن متميز .. مديم للعمل والجمع والتأليف متوجه للعبادة وللمباحثة والمناظرة) وقد استخدم نفوذه عند المسؤولين في مواجهة البدع وأهلها ، فاشتهر في المدينة بفضله وعلمه (وصار شيخها قلّ ألا يكون أحد من أهلها لم يقرأ عليه) . وكانت له عناية خاصة بتاريخ المدينة ومعالمها وبعض أعلامها ، وألف في ذلك كتاباً ضخماً سماه (اقتفاء الوفا بأخبار المصطفى) ثم اختصره في كتاب سماه (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) في أربعة أجزاء ثم اختصر هذا في كتاب من مجلد واحد سماه (خلاصة الوفا) . وكتب أيضاً (ذروة الوفا) ويعد من أهم من كتب عن المدينة حتى ذلك التاريخ . له عدة مؤلفات ما زال بعضها مخطوطاً منها - إضافة إلى ما ذكرته آنفاً : جواهر العقدين في فضل الشرفين (العلم والنسب) ، الفتاوي وهي مجموعة فتاواه ، الغماز على اللماز . رسالة في الحديث ، العقد الفريد في أحكام التقليد ، الأنوار السنية في أجوبة الأسئلة اليمنية ، در السموط .

وثمة ظاهرة في قضية العلم والعلماء تستحق أن نقف عندها لما تثيره من أسئلة كثيرة هي قضية **النساء العالمات** .

نساء عالمات في المدينة يأخذ عنهن طلاب العلم وبعض العلماء

فقد ورد في ترجمات عدد من العلماء أنهم أثناء تحصيلهم للعلم أحياناً ، وأحياناً أخرى بعد نضجهم وتبادلهم الإجازات من علماء آخرين ، أخذوا العلم وأخذوا إجازات من نساء في المدينة المنورة في ذلك العصر . مثال ذلك : زينب بنت عبد الله بن أسعد اليافعي(١) . محدثة ولدت بالمدينة في عام ٧٦٨ هـ وتلقت العلم عن عدد من الشيوخ منهم ابن أميلة والصلاح بن أبي عمر وابن السوقي السبكي وابن القارئ البغدادي والنشاوري وآخرون ، وقرأ عليها شيخ القراء في المدينة في القرن التاسع محمد بن محمد الششتري(٢) وأبو الفتح بن النجم بن محمد السكاكيني المسلسل بقراءة الفتحي(٣) وسمع منها أحمد بن محمد النويري(٤)

---

(١) انظر : أعلام النساء ٧٣/٢

(٢) الضوء اللامع ١٩٥/٩

(٣) السابق ١٢٥/١١

(٤) السابق ١٦٩/٢

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وفاطمة ابنة أبي اليمن المراغي ، ويتكرر[١] ذكرها في ترجمة عدد من أعلام المدينة على أنها علمتهم أو قرأوا عليها منهم : علي بن أحمد بن روزبة المدني[٢] وأبو بكر بن أبي الفتح الكازروني[٣] ومحمد بن محمد بن الجمال[٤] ومحمد بن محمد بن أبي بكر المراغي[٥] .

نساء عالمات يزرن المدينة ويعطين إجازات علمية

ومثلما كان العلماء يمرون بالمدينة فيستفيد منهم أهلها والزائرون الموجودون ؛ كانت النساء العالمات إذا جئن المدينة يلقاهن طلاب العلم والعلماء ويستفيدون منهن، ويذكر ابن الرشيد الفهري في سرده لأحداث رحلته إلى المدينة أنه التقى بأم الخير فاطمة بنت إبراهيم البطائحي في مسجد رسول الله ﷺ ، وقرأ عليها (بمحضر من ابنها ، وكانت تسدل جلبابها على وجهها حياء وصونا ، رضي الله عنها) وأعطته إجازة خطية بجميع مروياتها[٦] .

وثمة سيدة أخرى تقارب حالتها أم الخير هي **رقية بنت يحيى بن عبد السلام بن مزروع** ، التي أخذت العلم عن جملة من العلماء في مصر والشام ، منهم ابن سيد الناس ومغلطاي وزينب بنت الكمال ، ولما عادت إلى المدينة فتحت درساً في الحديث ، وصارت من مشاهير المحدثين فيها وانتفع بها أهل المدينة[٧] وذكرها عدد من مترجمي رجال الحديث كابن حجر والذهبي .

وتتوالى أسماء سيدات أخريات أخذ عنهن عدد من العلماء في الحديث منهن :

فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي : محدثة ذات دين وصلاح وعبادة ولدت سنة ٦٢٥ هـ وأخذت الحديث عن عدد من شيوخ عصرها منهم : ابن الزبيدي وابن الحصيري شيخ الحنفية . وحدثت وسمع عليها الحديث

---

(١) فاطمة ابنة أبي اليمن المراغي : لم أجد لها ترجمة في المصادر التي رجعت إليها .

(٢) الضوء اللامع ٢٠/٦ و ١٩٩/٧ .

(٣) السابق ٦٥/١١ .

(٤) السابق ٧٠٦/٩ .

(٥) السابق ٢٠٦/٩ .

(٦) ملء العيبة ٢١/٥ .

(٧) الدر المنثور ٢٠٦ والضوء اللامع ٣٦/١٢ وأعلام النساء ٤٥٩/١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الإمام محمد بن الفاسي حوالي سنة ٨٣٠هـ[١] ومحمد بن أحمد بن الكمال[٢] وزينب ابنة أحمد بن ميمون التونسي[٣] أجازت لطاهر بن أحمد بن محمد الملقب بالزين .

طبقة من النساء المثقفات والعالمات في المدينة

ولا شك أن وجود هؤلاء النساء المثقفات في المجتمع المدني يعني أشياء كثيرة منها : اهتمام أهل المدينة بتعليم المرأة إلى درجة أن بعض الأسر تتيح لهن الوصول إلى مرتبة عليا من التحصيل ، وتصبح المرأة (محدثة) أو (عالمة بالقراءات) .. وإذا كانت كتب التراجم قد ذكرت هذه الفئة فمن المنطقي أن نتوقع وجود فئة أخرى لم تصل درجة (العالمات) ولم تذكرهن كتب التراجم ، وهذا يعني أيضاً انتشار الثقافة بشكل ما بين النساء ، وليست لدينا معلومات دقيقة عن ثقافة المرأة العادية آنئذ . لكن الذي نتوقعه من وجود المقرئات والمحدثات والفقيهات أنها لا تختلف عن ثقافة طالب العلم من الرجال . ولكن بنسب مختلفة . وكذلك فإن حرص طلاب العلم والعلماء على أخذ بعض العلوم من النساء العالمات والقراءة عليهن يظهر مدى الإحترام الذي كان يحمله المجتمع للمرأة المثقفة .. وهذه كلها ظواهر حضارية عالية صنعها الإسلام في مجتمع المدينة المنورة في ذلك العصر .

إن استعراض الخط الزمني لحياة العلماء في المدينة يوصلنا إلى نتيجة تخالف ما يشاع عن تلك القرون ، فعدد العلماء يزداد بتقدم السنين ، وعلماء كل قرن يزيدون عن علماء القرن الذي يسبقه ، وهذا يعني أن الحركة العلمية تنشط والإبداع يزداد ، والعصر يتقدم علمياً ، لا كما يسمى ظلماً عصر الانحدار .

ولنذكر هنا أيضاً أن المدينة شهدت في العصر المملوكي أكبر عدد من المؤلفين الذين كتبوا عنها وهم :

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ٢٩١ ـ ٢٩٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٢٠/٣ و أعلام النساء ٢٥/٤ .

(٢) الضوء اللامع ٤٥/٧ .

(٣) التحفة اللطيفة ٢٥٦/٢ ولم أجد لها ترجمة مفصلة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ابـن فرحـون والمطـري والمراغـي والزرنـدي وابـن النجـار والفـيروز آبـادي والسخاوي وشيخ المؤلفين القدامى : السمهودي .. وقد طبعت كتبهم عن المدينة في وقتنا هذا ..

المدرسون والوعاظ كانوا على درجة كبيرة من العلم

وهناك فئة ثالثة كانت تجمع بين التضلع في العلم والموهبة الأدبية - سأعرض لهم في فترة دراسة قادمة إن شاء الله - وهناك أيضاً العلماء الذين اهتموا بالوعظ واقتصروا عليه ، فقد كان للوعاظ حلقات في المسجد النبوي أحسب أنها لم تنقطع ، وكانت تكثر في المواسم ويشارك فيها العلماء والوعاظ والوافدون ، فعندما جاء ابن الجوزي إلى المدينة سنة ٥٥٣ هـ عقد حلقات وعظ في المسجد النبوي[(١)] ، ووصف **ابن جبير** حلقة وعظ شهدها خلال زيارته للمدينة ، تحدث فيها رئيس علماء خراسان بالعربية والفارسية (فأطار النفوس خشية ورقة ، وتهافت عليه الأعاجم معلنين التوبة ، وقد طاشت ألبابهم ، وذهلت عقولهم .. فما رأيت ليلة أكثر دموعاً ، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة)[(٢)] وهذا يبين تأثير حلقات الوعظ في نفوس الحاضرين ، ومدى إقبال الناس عليها ..

ونلاحظ أيضاً أن الحركة العلمية كانت تركز على العلوم الإسلامية : أولاً الفقه والحديث والتفسير والقراءات ثم العلوم العربية : اللغة والنحو والصرف والعروض .

وطبيعي أن يكون الاهتمام بهذه العلوم في المقام الأول ، فالمدينة موئل التراث الإسلامي ، ثم إن المناخ الإيماني العام ، الذي يتعزز بالمسجد النبوي وبزيارة قبر رسول الله ﷺ والسلام عليه والجوار بقصد الاستزادة من العبادة وطبيعة العلماء الوافدين إلى المدينة .. كل هذا يجعل العلوم الدينية في مقدمة العلوم التي يهتم بها الناس في المدينة تليها علوم العربية التي تعد من مكملات العلوم الدينية .

---

(١) إتحاف الورى ٥١٩/٢

(٢) رحلة ابن جبير ١٧٨

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد تبين لنا من خلال المعارف التي حازها العلماء والحلقات التي عقدوها أن فريقاً منهم اهتم بالعلوم الأخرى خاصة المنطق والجبر والحساب .. وألفوا فيها .

ازدهار الوراقة وكثرة النساخ في المدينة

وثمة مؤشر آخر يدل على الحركة العلمية هو ازدهار الوراقة في المدينة آنئذ وكثرة النساخ الذين كانوا ينسخون الكتب ، سواء منها المؤلفة من قبل والتي ترد من الآفاق ، أو التي يؤلفها أصحابها من أهل المدينة والمجاورين فيها . ففي ترجمات أعلام تلك القرون يتكرر الحديث عن الذين (جوّدوا الخط ، نسخوا كتباً ومصنفات ، اشتغلوا بالنسخ)[1] وهذا يوفر لطلبة العلم والمثقفين والعلماء الاستزادة من المعرفة ، والوقوف على جوانب أوسع من التراث ، وعلى مؤلفات العلماء والمصنفين في أنحاء العالم الإسلامي .

وأخيراً : إذا أردنا أن نصف الحياة الثقافية في العصر المملوكي في المدينة المنورة فينبغي أن نميز بين أمرين هما : الثقافة العامة ، والإبداع العلمي .

فالثقافة تعني المعرفة واستيعاب العلوم والوقوف على آخر ما وصلت إليه، والإبداع يعني الإضافة المتجددة لما سبق أن وصل إليه الأسلاف ..

أما الثقافة **فقد كان سكان المدينة المنورة على مستوى عال فيها** ، يكثر فيهم حفظة القرآن ، وحفظة شيء مهم من الحديث ورواته ، ودارسو الفقه والتفسير واللغة ، ويشهد المسجد النبوي حلقات متواصلة يجلس فيها طلبة العلم والرجال الذين يرون في حضورها محافظة على الصلة بالعلم والعلماء ، وإكمالاً لواجباتهم الدينية ، وكان فيهم التجار والحرفيون والعاملون في الخدمات .. فضلاً عن المجاورين والزائرين .

وأما **الإبداع العلمي فهو دون ذلك** ، ولنذكر أن المبدعين دائماً قليلون ، وأن الغالبية في ذلك العصر كانوا يقدمون إبداعهم من خلال الشروح والحواشي .. وقد كانت موجودة في عطاء العلماء في المدينة ، بدليل ماذكرناه في الترجمات الموجزة للأعلام المصنفين قبل قليل ..

---

(١) انظر مثلاً : الضوء اللامع ٢٠٦/٤ ـ ٢٠٧ ، ٤٦/٥ ، ٢٣/٦ ، ٦٠/٨ ـ ١١٨ ـ ١٤٧/١٠ و التحفة اللطيفة ١٧٧/١، ٢٧٠ ، ٥٠٥ ..

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة